المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

الخطاب الانفعالي
في شعر الأستاذ الدكتور/ عصمت رضوان
دراسة بلاغية في ديوانه أنشودة الحجر

Emotional discourse in the poetry of Prof. Dr. Esmat Radwan
a rhetorical study in his book - the song of stone

بقلم الدكتور

محمد صلاح سالم نجم

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالمنوفية
جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار سبتمبر ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

الخطاب الانفعالي في شعر الأستاذ الدكتور/ عصمت رضوان
دراسة بلاغية في ديوانه أنشودة الحجر

محمد صلاح سالم نجم

قسم البلاغة والنقد ـ كلية اللغة العربية ـ فرع جامعة الأزهر بالمنوفية ـ جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: Mohamednegm.lan@azhar.edu.eg

الملخص

لعل ما يحدث في زمننا المعاصر من اعتداء واضطهاد لأرض فلسطين الشقيقة يؤلم النفوس ألمًا شديدًا، ويدمي القلوب، ويذرف دموع العيون، وهذا الاضطهاد والاعتداء من بواعث القول، ومن محركات الإبداع، ونالت فلسطين من العلماء والأدباء على مر الأزمان عناية خاصة؛ لأنها أرض مقدسة إسلامية، وفي عالمنا المعاصر حرك ما يحدث فيها الأستاذ الدكتور/ عصمت رضوان ــ أستاذ الأدب والنقد في جامعة الأزهر إلي أن يجاهد من خلال الكلمة الشاعرة الأبية الانفعالية ضد الاحتلال، فحرك من خلال ديوانه: أنشودة الحجر القلوب والجوارح ، وبث في نفوس المسلمين روح الأمل في أن الباطل زهوق، وكان من فضل الله على الباحث أن هيأ له النظر في هذا الديوان، فاستخلص منه فكرة الخطاب الانفعالي الذي يتسم بالإنكار والرفض للظلم، والإفساد في الأرض، وكانت قصيدة أنشودة الحجر التي سمي الديوان باسمها ركيزة من ركائز البحث، حيث قمت بتحليلها بلاغيًا، وذلك بعد النظر في الديوان كاملا، وأظهرت سمت الخطاب الانفعالي فيه، وكان من ثمار هذا النظر أن ظهر غلبة الخطاب الانفعالي في الشعر الوطني على الخطاب الهادئ الرقيق، وقد أقمت البحث على مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث وخاتمة، واتبعت في دراسته المنهج التحليلي الذي يعنى بوصف الظاهرة البلاغية، وتحليلها، وبيان السمات المتعلقة بها، وأثمر ذلك عن عناية علمائنا البلاغيين بالخطاب الانفعالي، وأنهم لم يهملوه، بل كان في بؤرة شعورهم، كما أثمر عن تنوع أساليب الخطاب الانفعالي، فلم يأت على نمطٍ تركيبي واحد، بل له أنماط مختلفة، مثل: التركيب الإسنادي، والصورة البيانية، والبديعية خاصة الضدية بين المعاني والألفاظ، ولعلي في النهاية أكون وفقت إلي إظهار محركٍ قوي من محركات الإبداع، ألا وهو الانفعال بالأحداث التي يعيشها عالمنا المعاصر.

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية، الخطاب الانفعالي، الشعر الوطني، أد/عصمت رضوان، أطفال الحجارة.

Emotional discourse in the poetry of Prof. Dr. Esmat Radwan - a rhetorical study in his book - the song of stone

Mohamed Salah Salem Negm

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Language Arabic Al-Azhar University Branch in Menoufia Egypt.

Email: Mohamednegm.lan@azhar.edu.eg

Abstract

Perhaps what is happening in our contemporary time of aggression and persecution of the brotherly land of Palestine hurts souls severely, and tears hearts, and sheds tears eyes, and this persecution and aggression of the motives of saying, and the engines of creativity, and Palestine has received from scientists and writers throughout time special attention, because it is an Islamic holy land, and in our contemporary world move what is happening where Prof. Dr. Esmat Radwan, Professor of Literature and Criticism at Al-Azhar University, to strive through the word poet proud emotional against the occupation, move from During his office: Song stone hearts and limbs, and broadcast in the hearts of Muslims the spirit of hope that falsehood Zahouq, and was the virtue of Allah on the researcher to prepare him to consider this office, extracted from it the idea of emotional discourse that is characterized by denial and rejection of injustice, and corruption in the earth, and the poem song stone named after the Diwan pillar of research, where I analyzed rhetorically, after looking at the entire Diwan, and showed the azimuth of emotional discourse in it, and was one of the fruits of this consideration That appeared the predominance of emotional discourse in national poetry on the quiet speech slave, has established research on the introduction, and introduction, and four investigations and conclusion, and followed in his study analytical approach that is concerned with the description of the rhetorical phenomenon, and analysis, and the statement of features related to it, and resulted in the care of our rhetorical scientists emotional discourse, and they did not neglect it, but was in the focus of their feeling, as resulted in the diversity of emotional discourse methods, did not come on a single synthetic pattern, but has different patterns, such as: The attributive structure, the graphic image, and the Badi'i, especially the opposite between meanings and words, and perhaps in the end I will have succeeded in showing a strong engine of creativity, which is the emotion of the events in our contemporary world.

Keywords: Rhetoric Arabic Emotional Discourse National Poetry Ed / Esmat Radwan Children of stones

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله ــ تعالى ــ الذي هدانا إلي دينه القويم، وأنعم علينا بالقرآن الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ سيد الأولين والآخرين، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الطيبين، ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين، وبعد:

فعند انفعالنا مع الحقائق الأليمة تخرج المعاني متدثرة بسياج الألفاظ النابضة بالتحدي والعزيمة، وغايتها حث المخاطب على أن يلقي بين عينيه عزمه في استقبال هذه الحقائق، وتغييرها للأفضل والأحسن، وينكب عن ذكر العواقب جانبًا، وهذا البحث الموجز يدور حول خصائص الخطاب الانفعالي في ديوانٍ لأزهري أديب، وألمعيٍ أريب، أخبرني شعره أنه مجبول على نفسٍ تأبي الذلة والهوان، وتنأى عن المهانة والخذلان، ألا وهو: الأستاذ الدكتور/ عصمت رُضوان، وديوانه المملوء بالعبر موسوم بأنشودة الحجر، وفيه يستنهض عزائم الرجال للوقوف في وجه كل متكبرٍ مختال؛ وأول قصيدة فيه تخاطب بأسلوب صريحٍ الطفل الفلسطيني ليثب وثبة الفهد، ويظل هكذا وثابًا إلي أن يعيد كل طارفٍ وتليد عدا عليه كل كفارٍ عنيد، من الأرض المباركة فلسطين، التي هي ربوة ذات قرار ومعين، وبالنظر في القصيدة رأيت غلبة الأسلوب الإنشائي على الأسلوب الخبري، وبالنظر في الديوان كاملاً رأيت هذا السمت ظاهرًا، ورأيت أنه يتسم ــ كذلك ــ بخطابه الانفعالي، ولما كان خطاب الديوان والقصيدة محل الدراسة بهذه النبرة العالية النابعة من العدول بالتعبير الأدبي من الحقيقة إلي المجاز، ولما كان المجاز متولدًا من الحقيقة، ومن ثم فبينهما علاقة ترابط والتئام بدا لي أنه من الواجب إظهار هذه الفكرة في ساحة الدرس البلاغي، وهذا سبب رئيس للبحث.

وفكرة تولد المعاني الجديدة من الأساليب العربية المعهودة عامة فكرة لا تموت، ولا يعدم منها الفائدة، ومعينها ــ دائما ــ نبعًا ثريًا لا ينضب ماؤه أبدًا،

ويتضح ذلك أكثر في أسلوب الخبر وأسلوب الإنشاء، وأستدل على كلامي هذا بنصين فريدين لعالمٍ بلاغي عاش في عصر احتلالٍ أشبه بعصرنا المعاصر، ذلك الذي يتألم فيه الفلسطينيون من وطأة احتلال أبناء صهيون، ألا وهو: سعد الدين التفتازاني ــ رحمه الله ــ.

يقول عن فكرة تولد المعاني من الأسلوب الخبري وهو بصدد شرح قول الخطيب القزويني ــ رحمه الله ــ : "لا شك أن قصد المخبر بخبره إفادة المخاطب إما الحكم وإما لازمه" : "إنه كثيرًا ما تورد الجملة الخبرية لأغراض أخرى سوى إفادة الحكم أو لازمه كقوله تعالى حكاية عن امرأة عمران:[**رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى**] [آل عمران: ٣٦] إظهارًا للتحسر على خيبة رجائها، وعكس تقديرها، والتحزن إلي ربها؛ لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرًا، وقوله تعالى حكاية عن زكريا ــ عليه الصلاة والسلام ــ : [**رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**][مريم:٤] إظهارًا للضعف والتخشع، وقوله تعالى: [**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**][النساء: ٩٥] إدكارًا لما بينهما من التفاوت العظيم؛ ليتأنف القاعد، ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته، ومثله: [**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**][الزمر:٩] تحريكًا لحمية الجاهل، وأمثال هذا كثيرٌ من أن يحصى... "(١).

وبإعادة النظر ــ أيها القارئ الكريم ــ إلي صدر حديثه: إنه كثيرًا ما تورد الجملة الخبرية لأغراضٍ أخرى سوى إفادة الحكم أو لازمه، وعجزه وهو قوله: وأمثال هذا كثيرٌ من أن يحصى تبين بوضوح فكرة تولد المعاني الجديدة، وهي فكرة أكثر وضوحًا في باب الإنشاء الطلبي أي: طلب حصول شيءٍ ما ليس حاصلاً وقت الطلب، يقول السعد ــ رحمه الله ــ : "جميع أنواع الطلب يستدعي ذلك حتى إذا كان المطلوب حاصلاً يمتنع إجراؤها على معناها الحقيقي، ويتولد منها بحسب القرائن ما يناسب المقام"(٢)، ولو أنك أخذت معي ــ قارئ الكريم ــ في استقراء

(١) المطول للسعد التفتازاني ــ ط/ أحمد كامل ١٣٣٠هـ ــ صـ:٤٣

(٢) المصدر السابق: ٢٢٤

مصطلح تولد المعاني الجديدة النابعة من السياق في باب الإنشاء ــ مثلاً ــ لأثمر ذلك عن فقه علمائنا القدامى بلغتنا العربية وميزاتها المتعددة، وتبين لنا أنها كما تتولد ألفاظها وتتكاثر وتتسع بسبب ما تتميز به من الاشتقاق، والتقليبات الصوتية تتولد معانيها ــ كذلك ــ من خلال السياق وقرائن الأحوال.

أقول هذا؛ لأن الديوان مفعمٌ بالمعاني التوليدية التحويلية الرائعة، والقصيدة التي سيتناولها البحث، والتي وسمت بأنشودة الحجر ما هي إلا نفثة مصدور من قلب أفعم بالأسى والحزن، ومن ثم تولد من أساليبها الخبرية والإنشائية معان جديدة غير معانيها الحقيقية، وسيطر عليها معنيان كبيران: الأول: التوجع والتحسر، والثاني: التجلد والصمود، وكلا المعنيين صُبَّا في إطار جملة انفعالية واضحة، وسيحاول البحث إيضاح سمتها وخصائصها البلاغية، وهذا سبب قويٌ حدا بي إلي دراستها.

ووسمت الدراسة بعنوان: **الخطاب الانفعالي في شعر الأستاذ الدكتور عصمت رضوان دراسة بلاغية في ديوانه أُنشودة الحجر**.

ويترسم البحث خطا **المنهج التحليلي** القائم على بيان السمات والخصائص التي يتميز بها النص في صورته الكلية، وعلاقة جزئياته بعضها ببعض، وما يتميز به ــ كذلك ــ من سمت بلاغي للجملة الانفعالية في داخله.

وخطة دراسته تتمثل في **المقدمة** التي تعنى بفكره الموضوع، وأهميته، ومنهجه، وخطته التي يسير عليها، **والتمهيد** الموسوم بعنوان: الخطاب الانفعالي، وسيرة الشاعر الذاتية، ويشتمل على محورين:

الأول: مفهوم الخطاب الانفعالي، **والثاني:** السيرة الذاتية للشاعر. ويعقبه أربعة مباحث"

المبحث الأول: ديوان أنشودة الحجر، وسمته الانفعالي ــ دراسة وصفية موجزة، وفيه مطلبان:

الأول: دراسة وصفية موجزة لديوان أنشودة الحجر.

الثاني: قصيدة أنشودة الحجر، ومعناها العام.

المبحث الثاني: الجملة الانفعالية الإنشائية، وخصائصها البلاغية في القصيدة، وفيه ثلاثة مطالب:

الأول: الأمر والنهي والنداء. **الثاني:** الاستفهام . **الثالث:** القسم

المبحث الثالث: الجملة الانفعالية الخبرية، وخصائصها البلاغية في القصيدة، وفيه ثلاثة مطالب:

الأول: الخبر الإنكاري. **الثاني:** الخبر لتعدد مظاهر القوة. **الثالث: الخبر لتحريك الهمة**

المبحث الرابع: التماسك النصي، والخطاب الانفعالي في القصيدة، وفيه مطلبان:

الأول: من الروابط اللفظية في القصيدة. **الثاني:** من الروابط المعنوية في القصيدة

الخاتمة وفيها أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج، ويعقب ذلك ثبت بأهم المصادر والمراجع، وفهرس محتويات الدراسة، والله من وراء القصد وهو الهادي إلي الصراط المستقيم.

التمهيد: الخطاب الانفعالي، وسيرة الشاعر الذاتية.

المحور الأول: مفهوم الخطاب الانفعالي

يتكون أي خطاب من ثلاثة عناصر رئيسة هي: المخاطِب، والمخاطَب، والمخاطَبُ به، أو رسالة الخطاب، وتتنوع لغة الخطاب حسب ثقافة متلقي الخطاب، ومن ثم يتسم الخطاب تارة بالإيجاز، وتارة بالإطناب، وتارة بالشدة وتارة باللين، وتارة بتكرار العبارة، وتارة بالإشارة، والنص الذي نحن بصدده من الخطاب الانفعالي الصرف، وله خصائص ميزته بذلك، وقبل الوقوف على سمته، وخصائص خطابه الانفعالي يحسن تعريف كل من الخطاب، والانفعال؛ ليتضح للقارئ الكريم المعنى، ويستقر في وجدانه المرمى.

مفهوم الخطاب:

مصطلح الخطاب أولاه علماء البلاغة العناية والاهتمام، فعرفه سعد الدين التفتازاني ــ رحمه الله ــ بقوله: "توجيه الكلام إلي حاضر"(١)، وقد ركز هنا على عنصرين هما: النص، والمخاطَبُ به، وعرفه العلامة الدسوقي(ت١٢٣٠هـ) بقوله: "المراد بالخطاب الكلام المخاطب به"(٢) ونراه ركز في هذا الموطن على النص فحسب، وقال ــ كذلك ــ : "الخطاب توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"(٣)، وفي هذا التعريف نصَّ على الغاية من أي خطاب وهي: الإفهام، وهي تعني اقتناع النفس وتأثرها بما أُلقي لها وإليها.

ومن خلال المعاني السابقة يتضح أن خطابك أي: كلامك الذي توجهه إلي غيرك يحتاج منك إلي اختيار الطريق الذي يتناسب ومن تخاطب؛ ليفهم عنك مرادك دون عناء، وعليه فالخطاب: "منظومة معرفية مكونة من مجموعة من

---

(١) المطول للسعد التفتازاني ــ صـ:٧١

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر السعد ــ ضمن شروح التلخيص : (٤٤/١) . مطبعة عيسى البابي الحلبي.

(٣) المصدر السابق : (٤٥/١) .

التشكيلات اللفظية، والنصية، والإجرائية التي يتداولها الأفراد والجماعات، وتسهم في تشكيل وعيهم بالعالم من حولهم، وتصورهم لأنساقه الفاعلة والمهيمنة"(١).

مفهوم الانفعال:

مصطلح الانفعال في عرف اللغة "مصدر للفعل الماضي انفعل، وهو يتعدى مرة بالباء، ومرة بعلى، تقول: انفعل بـ ، وانفعل على... ومعناه: حالة وجدانية يثيرها مؤثر ما في الكائن الحي، وتصحبها تغييرات فسيولوجية، وتكون الإثارة نتيجة لتعطيل فعلٍ أو سلوكٍ ينزع إليه الفرد، أو نتيجة لتحقيق رغبة،... والانفعالية مصدر صناعي من انفعال، ومعناها: سرعة الانفعال والتأثر،...وانفعاليٌّ اسم منسوب إلي انفعال"(٢).

ونستفيد مما سبق أن الخطاب الانفعالي يكون نتيجة لمؤثرٍ حرك المشاعر وأيقظها، واستثارها وأغضبها، وهذا المؤثر قد يكون داخليًا يتعلق بالنفس والروح، وقد يكون خارجيًا يتعلق بالمحيط والكون ككل، ومن أمثلة المؤثر الداخلي: حين تنزع النفس إلي الطموح وتحقيق الرغائب؛ لالتحاقها بالمعالي والقداسات، أو تنزع إلي الطمع والاستيلاء، والشرور، ومن أمثلة المؤثر الخارجي: الدمار والفساد والهلاك والإهلاك الذي يحدثه البشر من حولك، أو الإصلاح والجمال والتعاون المجتمعي، وكل ذلك يخلق نوعًا من الانفعالات المختلفة المتنوعة، ولا شك أن كل انفعال سواء أكان انفعاليا إنكاريًا حادًا أم جماليًا هادئًا يناسبه نمط خاص من الألفاظ المناسبة، والأساليب المؤثرة، وهذا يترتب عليه وجود خصائص بيانية يمتاز بها هذا عن ذاك، وستحاول الدراسة بيان ما يمتاز به الخطاب الانفعالي من سمات بلاغية في الديوان والقصيدة.

---

(١) تراثنا البلاغي والمناهج الحداثية دراسة مقارنة ـ د/ أسامة البحيري ـ ص: ٢١٣ ـ الناشر/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ط/٢٠١٦م

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة ـ أد/ أحمد مختار عمر ت ١٤٢٤هـ ـ (١٧٢٥/٣) الناشر/ عالم الكتب ـ ط/ الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

المحور الثاني: سيرة الشاعر الذاتية

قائل النص هو الأستاذ الدكتور/ عصمت محمد أحمد رضوان شاعر وناقد أدبي، وأستاذ جامعي، فهو أستاذ الأدب والنقد في جامعة الأزهر، ولد في قرية جزيرة أولاد حمزة التابعة لمركز العسيرات بمحافظة سوهاج في يوم السبت الموافق السادس من مارس عام ألف وتسعمائة وستة وسبعين من الميلاد في أسرة عرفت بالتقوى والصلاح.

حفظ القرآن في سنٍ مبكرة، والتحق بالأزهر، وتخرج في كلية اللغة العربية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، ثم حصل على الماجستير عام ٢٠٠٣م في الأدب والنقد بتقدير ممتاز مع التوصية بطبع الرسالة وتداولها بين الجامعات، ثم الدكتوراه في الأدب والنقد عام ٢٠٠٦م بتقدير ممتاز مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة وتداولها بين الجامعات، ثم ترقى إلي درجة أستاذ مساعدٍ في الأدب والنقد عام ٢٠١١م، ثم درجة الأستاذية في الأدب والنقد عام ٢٠١٨م، وله نتاجٌ علمي كبير ما بين بحوث وكتب علمية، ودواوين، وقصائد شعرية، نشرت في الصحف والمجلات، ومن دواوينه: ديوان أنشودة الحجر محل الدراسة والبحث، وله طبعتان الأولى عام ٢٠٠٣م طبعة دار الجامعة، والثانية عام ٢٠١٢م طبعة دار الفكر، وقد اعتمدت في دراستي على طبعته الأولى.

وقيل عنه وعن شعره الكثير، وحقا هو بذلك جدير، من ذلك قول الأستاذ الدكتور/ على أحمد الخطيب عميد كلية اللغة العربية الأسبق بجرجا، وهو يقدم لديوان الشاعر الموسوم بـ[أنشودة الحجر]: "هو الابن النابغ، والشاعر النابه عصمت رضوان"(١)، ويقول عنه الأستاذ الدكتور/ ياسر السيد البنا: "الدكتور

(١) ديوان أنشودة الحجر للشاعر أد/ عصمت رضوان ــ صـ: ٩ ــ الناشر/ دار الجامعة ــ ط/ الأولى٢٠٠٣م

عصمت رضوان شاعر إسلامي صادق، ووطني عاشق، وأخ مواسي، وصديق صدوق، ومحب مخلص لدينه ووطنه وأمته..."(١).

ومن خلال ما قرأت في شعره أستطيع استنباط بعض ملامح حياته وأقول: إنه ابن لغة القرآن، ومن أحفاد شاعر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ سيدنا حسان ــ رضي الله عنه ــ، حيث الغيرة الشديدة على مبادئ الإسلام، وأخلاقه التي تسمو شرفًا بالأنام، ومن ينعم النظر في شعره يجده سلسًا مفهوم المعنى والمبنى، خاليًا مما ينقص الكلمة والكلام شرفًا ونبلاً، وهو في شعره الوطني صادق التعبير، ذو طبعٍ قويٍ، وتصوير صفي، وتركيب شجي، فجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء، وأسأل الله ــ تعالى ــ ألا ينضب ماء شعره قط.

(١) قبل تبسم الفجر ــ ديوان شعر للأستاذ الدكتور/ عصمت رضوان ــ تقديم أد/ ياسر البنا ــ صـ: ٥ ــ الناشر/ مكتبة الآداب ــ ط/٢٠٠٨م.

المبحث الأول: ديوان أنشودة الحجر، وسمته الانفعالي ـ دراسة وصفية موجزة.

المطلب الأول: دراسة وصفية موجزة لديوان أنشودة الحجر.

يقع ديوان أنشودة الحجر في أربع وثمانين صفحة، ومودع في دار الكتب والوثائق المصرية تحت رقم ٢٠٠٣/٨٣٥١م، ويحتوي على عشرة قصائد، أولها: أنشودة الحجر، ثانيها: الطبيعة الناسكة، ثالثها: قف يا زمان، رابعها: لغة القرآن، خامسها: المؤثرون، سادسها: ركب النور، سابعها: رمضان أقبل، ثامنها: لبيك ربي، تاسعها: رثاء الشيخ الشعراوي، عاشرها: لا زلتُ حرًا، والقصائد من الشعر العمودي إلَّا آخرها فهي من شعر التفعيلة، قالها على لسان شاب فلسطيني طباعه نبيلة.

والسمت البلاغي لقصائد الديوان يغلب عليها الانفعال، وقد استخدم من أساليب اللغة العربية ما يشد من أزر هذا الخطاب مثل: الجمل الإنشائية، وجمل الشرط، وجمل النفي، وغيرها من الجمل التي يؤثر السياق والمقام في دلالتها الحادة الإنكارية الانفعالية.

ففي القصيدة الموسومة بـ(قف يا زمان) يقول منها:

النَّيلُ في مِصرَ العَزِيزَةِ نِعْمَةٌ كُبْرى وفضلٌ وَاسِعٌ مُذْ كَانَا
لَكنْ شَبابَ النِّيلِ قَدْ لَوثْتمُ مِنْهُ المِياهَ فَخُنْتُمُ الأوْطَانَا
حَتى الهواءَ جَعَلْتُمُوهُ مُلَوَّثًا فَشَكتْ لِذلكَ أَرْضُنَا وَسَمَانَا
هَلْ هَكَذَا رَدُّ الجَمِيلِ لِنِيلِنَا؟ يَا قُبَّحًا يَا خُسْرَنَا وَرَدَانَا(١)

القصيدة يخاطب الشاعر فيها الزمان، ويأمره أن ينحني لمصر؛ لأنها أذلت كل معتدٍ وظلوم، وفيها يذكر المصريين بنعمة الله عليهم، المتمثلة في نهر النيل، وينفعل في خطابه إليهم؛ لأنهم لوثوه، ويرى الباحث أنه أنكر عليهم من خلال السؤال بـ(هل)، وساعد على تصاعد نبرة الإنكار ما سبقه من سلبيات اقترفوها،

(١) ديوان أنشودة الحجر: ٣٣

مثل: تلويث المياه، والهواء حتى ضجت الأرض والسماء وشكتا كما هو واضح في البيت الثالث، ولا شك أن تلك استعارة مكنية، ووظيفة هذا الخطاب المجازي أنه جسد الألم النفسي لدي الشاعر، وأظهر حزنه وألمه بسبب ما يتراءى أمام ناظريه.

ويعبر عن انفعاله باستخدام أسلوب الاستفهام والنداء معًا في قصيدته **لغة القرآن**، وذلك حيث يقول منها:

لُغَةُ القُرْآنِ عَشِقْنَاهَا ... بِشِغَافِ القَلْبِ حَفِظْنَاهَا
كَانَ الأَجْدَادُ لَهَا لُسُنًا ... قَدْ ضَبَطُوا اللَّفْظَ وَمَعْنَاهَا
قَدْ كَانَ العُرْبُ مَقَاوِيلاً ... كَشَفُوا لِلنَّاسِ خَفَايَاهَا
مَا بَالُ النَّشْءِ تَجَاهَلَهَا ... مَا بَالُ الكُلِّ تَنَاسَاهَا؟
أَشَبَابَ العُرْبِ كَفَى جَهْلاً ... مَا كَانَ الحُرُّ لِيَنْسَاهَا(١)

ختام الأبيات يفيض بالحسرة والحزن، وهو وقعٌ نفسي مضنٍ، لا يتحمله حرٌ، فكيف بمن ملك إحساسًا مرهفًا، وحباه الله بحفظ القرآن، وامتلاك أساليب اللغة، والشعور بحلاوتها، ومعرفة أسرارها؟ لا شك أن ذلك انفعال أزكته وأضرمت ناره أساليب العربية مثل: الاستفهام، والنداء، والنفي.

ولنضرب مثلاً ثالثًا يدل على غلبة الانفعال في قصيدته **لا زلت حرًا** ، ومنها يقول شاعرنا العزيز:

لَوْ أَزْهَقُوا رُوحِي
وَدَاسُوا جُثَّتِي
لَوْ عَلَّقُونِي فِي المَقَاصِلِ
وَاسْتَلَذُّوا قِتْلَتِي
لَنْ أَتْرُكَ القَوْمَ الأَرَاذِلَ
رُتَّعًا فِي جَنَّتِي

(١) أنشودة الحجر: ٣٧

لَنْ يَغْصِبُوا أَرْضًا
تَغَذَتْ مِنْ سنَابِلِهَا دِمَايْ
لَنْ يَأْخُذُوا دَرْبًا
تَهَاوَتْ فِي مَسَالِكهِ خُطَايْ(١)

الجملة الشرطية بـــ(لو)، والمنفية بـــ(لن) جملتان خبريتان أثرتا تأثيرًا قويًـــا في المتلقي، حيث أعلمته أن شباب فلسطين مرابطون على ثغر من ثغور الإسلام، وهو الدفاع عن الوطن الذي فيه ولدوا، وبه لعبوا، ومنه شبوا، وهيهـــات هيهـــات لليهود فلن يحصلوا من سعيهم على طائلٍ، لأن أسد الغاب لن يتهاونوا في الـــدفاع عن أرضهم، كل هذه المعاني وغيرها حملتها الجملتان الخبريتان المبدوءتان بلـــو، ولن.

ولعل النماذج الثلاثة كافية للاستدلال على أن الشاعر انفعل لما عليـــه حـــال أهل مصر من تلويث لمياه النيل، ومن تركٍ للغة القرآن، ولما وقع فيه الفلسطينيون من آلام، وهائنذا أقف وقفة متأنية ــ بمن الله وفضله عليَّ ــ على قصيدة أنشـــودة الحجر؛ لإظهار خطابها الانفعالي، وسمتها البلاغي.

(١) أنشودة الحجر: ٧٦

المطلب الثاني: قصيدة أنشودة الحجر، ومعناها العام.

لنفاسة عنوان القصيدة أُطلقَ على الديوان كله، وقيل عنها وعنه: "أنشودة الحجر يهديه إلي أطفال الحجارة بفلسطين الإسلامية، أولئك الفتية الذين أقضوا مضاجع اليهود، وأفزعوهم وكيف لا؟ وقد قتل داوود ــ عليه السلام ــ جالوت بحجر(١)، وهو طفل صغيرٌ؟ وقد فطن اليهود إلي هذا المعنى، فنراهم يشنون الغارات، ويقتلون الأطفال والأمهات، وفي هذا الديوان يهيب الشاعر بالطفل الفلسطيني أن يهب ليرجم بحجره الضعيف شياطين الإنس: قُمْ يَا صَغِيرُ إلي الحَجَرْ = وَارْجُمْ أَبَالِسَةَ البَشَرْ"(٢).

نص قصيدة أنشودة الحجر

قُمْ يَا صَغِيرُ إِلَي الحَجَرْ ... وَأَرْجُمْ أَبَالِسَةَ الْبَشَرْ
وَاقْذِفْ حِجَارَتَكَ الضِّعَافِ ... صَوَاعِقًا تُرْدِي الأَثَرْ
اقْذِفْ وَلَا تَخَفِ اللَّهِيبَ ... وَلَا الدُّخَانَ وَلَا الشَّرَرْ
اقْذِفْ وَلَا تَخْشَ المَنُونَ ... وَلَا تَفِرَّ مِنَ الخَطَرْ
فَالمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ ... شَهْدُهَا فِي الحَلْقِ مُرْ
اقْذِفْ فَصَخْرُكَ مَعْبَرٌ ... يُدْنِي الجَبَابِرَ مِنْ سَقَرْ
اقْذِفْ فَصَخْرُكَ مِشْعَلٌ ... يَهَبُ الهِدَايَةَ مِنْ عَبَرْ
اقْذِفْ فَصَخْرُكَ آيَةٌ ... فِيهَا المَوَاعِظُ وَالعِبَرْ
اقْذِفْ فَصَخْرُكَ قِصَّةٌ ... مِنْ خَيْرِ مَا تَحْكِي السِّيَرْ
اقْذِفْ تُؤَيِّدُكَ السَّمَاءُ ... وَكُلُّ أَفْئِدَةُ البَشَرْ

---

(١) ينظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ــ لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت٥٣٨هـ/ تح/ يوسف الحمادي ــ (٢٦٧/١) الناشر/ مكتبة مصر ــ بدون تاريخ.

(٢) ديوان أنشودة الحجر للشاعر أد/ عصمت رضوان ــ صـ: ٩

اقْـذِفْ قَـدِ اقْتَـرَفَ الطُغَـــ ... اةُ جرَائِمَـــا لَـــا تُغْتَفَـــرْ
هُـمْ عَلَّمُـوكَ الْقَتْـلَ وَالتَّـــ ... رْوِيـــعَ فِـــي رَيْـــعِ العُمُـــرْ
هُـــمْ قَتَّلُـــوا فِيـــكَ الطُّفُـــو ... لَـــةَ وَالبَـــرَاءَةَ فِـــي الصِّـــغَرْ
هُـــمْ صَـــيَّرُوا الأَشْـــوَاكَ ... تَنْبُـــتُ فَـــوْقَ أَوْرَاقِ الزَّهَـــرْ
فَـــالظُّلْمُ يُزْكِـــي مُهْلِكَـــاتُ ... النَّارِ فِـــي الغُصْـــنِ الخَضِـــرْ
أَوَلَـــمْ تَـــرَ الطَّيْـــرَ الوَدِيـــعِ ... جَحَافِلَـــاً تُزْجِـــي الْقَـــدَرْ
فِـــي جَوْفِهَـــا المَـــوْتُ الـــزُؤَامُ ... غَـــدَاةَ أَبْرَهَـــةٌ فَجَـــرْ
أَوَلَـــمْ تَـــرَ المَـــاءَ الرَّقِيـــقَ ... هُـــوَ الهَـــلَاكُ لِمَـــنْ غَـــدَرْ
لمَّـــا أَصَـــرَّ المُجْرِمُـــونَ ... عَلَـــى مُعَـــادَاةِ النُّـــذُرْ
اقْـــذِفْ وَلَـــا تِـــهِ لحْظَـــةً ... فَغَـــدَا يَلِـــينُ لَـــكَ العَسِـــرْ
وَلَقَـــدْ تَـــأَذَّنَ رَبُنَـــا ... واللهُ حَـــقٌ مَـــا قَـــدَرْ
لَيُـــذِيقَنَ القَـــوْمَ الطُغَـــاةَ ... مِـــنَ العَـــذَابِ المُسْـــتَمِرْ
اقْـــذِفْ فَنَصْـــرُكَ قَـــادِمٌ ... حَتْمًـــا صَـــغِيرِي لَـــا مَفَـــرْ
اقْـــذِفْ فَقُدْسُـــكَ عَائِـــدٌ ... مَـــا دَامَ فِـــي يَـــدِكَ الحَجَـــرْ

المعنى العام للنص

هذا النص نفيس جدًا؛ لأنه قطعة من قلب يتألم من واقعٍ أليم على رقعةٍ من أرض الوطن العربي، ألا وهي فلسطين، تلك البقعة المباركة التي باركها الله ــ تعالى ــ في مستهل سورة الإسراء، والنص من الشعر الوطني الصادق في تعبيره، وأساليبه، وصوره البيانية، ويقع في أربعة وعشرين بيتًا يتوزع في أفكار رئيسة هي:

الأولى: خطاب الطفل الفلسطيني، وهو خطاب مباشر استهل به الشاعر النص مخالفًا به المعهود عن العرب في استهلال قصائدهم، والسبب في ذلك تباين طبيعة الشعر الوطني للأجناس الأخرى من شعرنا العربي، حيث إن من سماته

الخاصة الانفعال للأحداث سواء أكانت تعميرية أم تدميرية، والانفعال هنا تدميري خالص ناسبه عدم التوطئة والتمهيد للغرض المنشود، والدخول المباشر إلي المقصود، والفكرة الأولى للنص تكونت من أحد عشر بيتًا (١ــ١١) وكلها كما سيتضح أثناء الدراسة خطاب انفعاليٌ إنشائيٌ.

الثانية: وصف العدو المحتل، ويقع ذلك في أربعة أبيات من البيت الثاني عشر إلي الخامس عشر (١ــ١٥)، ويغلب على هذه الفكرة الخطاب الانفعالي الخبري، وستظهر خصائصه أثناء البحث، ومن الجدير بالذكر هنا الإشارة إلي أن بناء هذه الفكرة على التي سبقتها مناسب لمضمون النص؛ لأن الشاعر وضع بيانه عن الأعداء المحتلين بين جنديين قويين: الأول في الأرض وهو الطفل الفلسطيني الصغير، وهو كثير الحركة كالطير، والثاني في السماء وهم الطير الأبابيل الذين أرسلهم الله ــ جلت قدرته ــ لقتل أبرهة وجنوده.

الثالثة: التذكير بعاقبة المعتدين، وما آلوا إليه من هلاكٍ وفناءٍ، وركز الشاعر على اعتداء أبرهة الأشرم على حرم الله في مكة المكرمة، وهلاك قوم عادٍ الذين جعل الله عذابهم في هذا العارض السائر في السماء أعني: ماء السحاب الذي ساق إليهم الريح العقيم، فجعلتهم كأعجاز نخلٍ خاويةٍ، وأتت تلك الفكرة في أربعة أبياتٍ بدأت من البيت السادس عشر إلي التاسع عشر (١٦ــ١٩).

الرابعة: خطاب الطفل الفلسطيني مرة أخرى، وتذكيره بوعد الله ــ تعالى ــ بأنه سيذيق الطغاة من العذاب المستمر، وسينصر حرمه المقدس في أرض فلسطين بشرط أن تظل المرابطة قائمة، وذلك من البيت العشرين إلي الرابع والعشرين، وهائنذا أنتقل ــ بمن الله تعالى ــ إلي سمت الجملة الانفعالية في القصيدة.

المبحث الثاني: الجملة الانفعالية الإنشائية، وخصائصها البلاغية في القصيدة.

ينقسم الكلام في لغتنا العربية قسمين كبيرين هما: الخبر والإنشاء، والخبر قول يحتمل الصدق والكذب لذاته، والإنشاء قول لا يحتمل صدقًا ولا كذبًا، وهو محصور في أساليب محددة موضوعة ضمن ما يسمى بالإنشاء الطلبي، وغير الطلبي، وأنواع الأول خمسة فقط هي: الأمر والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء، وأنواع الثاني كثيرة "كأفعال المقاربة، وأفعال المدح والذم، وصيغ العقود، والقسم، ولعل، ورب، وكم الخبرية، ونحو ذلك"(١)، وكلها تتحول دلاليًا من أصل استعمالها في عرف اللغة إلي معانٍ جديدة تنبع من السياق، وحين تناول الخطيب القزويني هذين القسمين بالدرس البلاغي قدم ما يتعلق بالخبر على الإنشاء، وعلل العلامة سعد الدين التفتازاني لذلك بقوله: "وإنما ابتدأ بأبحاث الخبر لكونه أعظم شأنًا، وأعم فائدةً؛ لأنه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وفيه يقع الصياغات العجيبة، وبه يقع غالبًا المزايا التي بها التفاضل، ولكونه أصلاً في الكلام؛ لأن الإنشاء إنما يحصل منه باشتقاقٍ كالأمر والنهي، أو نقلٍ كعسي ونعم وبعت واشتريت، أو زيادة أداةٍ كالاستفهام والتمني، وما أشبه ذلك"(٢).

هذا هو المنهج العلمي التعليمي الذي سار عليه العلماء في دراستهم لقسمي الكلام في لغة العرب، وسر تقديمي الإنشاء على الخبر هنا هو كثرة الجملة الإنشائية في القصيدة كثرة وصلت إلي حد الظاهرة البيانية الواضحة، فمن أجل هذه الغلبة قدمت الإنشاء بأنواعه المتعددة على الجملة الخبرية، والدلالات التحويلية التوليدية لأساليب الطلب الإنشائي في القصيدة سيكون ضمن المطالب الآتية:

---

(١) المطول: ٢٢٤

(٢) المصدر السابق : ٤٣

المطلب الأول: الأمر والنهي والنداء

الأمر والنهي من أكثر أساليب الطلب دورانًا على الألسنة؛ ومن سنن العرب في بيانهم بهذين الأسلوبين الإتيان بعلة الطلب بهما؛ وذلك لأن المأمور به ــ غالبًا ــ يكون فيه مشقة على النفس، فإذا بين الآمر العلة من الأمر أقبلت النفس على امتثاله وهي متشوقة إلي جنى الثمار، والقصيدة محل الدراسة وصل فيها التعبير بالأمر إلي حد الظاهرة البلاغية، ويعد نمطًا أساسيًا فيها، فقد وصل عدد تكرار الأمر بصيغة (افعل) إلي أربعة عشر فعلاً (١٤)، وتكرر فعل الأمر (اقذف) اثنتي عشرة مرة (١٢)، ووصل عدد التعبير بصيغة النهي (لا تفعل) سبع مرات (٧)، وقد اقترن الأمر والنهي في ثلاثة أبيات من القصيدة، وتلك نظرة إجمالية اعتمدت على التتبع والاستقراء، ويعقبها التفصيل والتحليل، وها هو ذا:

نستطيع الحكم على أن الشاعر انفعل بالأحداث الأليمة التي أصابت أرض فلسطين من خلال لغة القصيدة، فلغتها انفعالية لجأ الشاعر فيها إلي بيان ذلك من خلال مستهل نشيده حيث قال: (قم يا صغير إلي الحجر) كاشفًا بتحول دلالة الأمر والنداء الذي بجانبه عن حزنه وتوجعه وتحسره، فطفل الانتفاضة يأبي الذلة والهوان، ويسارع إلي تحرير الأوطان، في حين أن الكبار من الأمة العربية قابعون متوقفون، ويتكرر أسلوب الأمر في الشطر الثاني: (وارجم أبالسة البشر) كاشفا عن دلالة جديدة هي: استنهاض الهمم والعزائم، وعدم التواني في مواجهة التصدي للاحتلال.

وينبغي التنبيه إلي أن الشاعر استخدم في مستهل قصيدته أسلوبين من أساليب الإنشاء الطلبي، وهما: الأمر والنداء واختص من أدوات النداء (يا) التي للبعيد لإثارة الانتباه والإقبال السريع، ولا يوجد أدنى شكٍ في أن نداء البعيد يتطلب رفع الصوت إلي أقصى غاية، وتلك دلالة الانفعال الخطابي، ويزيد من تأكيد هذه اللمحة أن المنادي منكرًا للدلالة على أنه لا يقصد صغيرًا بعينه، وإنما كل صغيرٍ، وكأنه يحشد الأطفال بهذين الأسلوبين، وحين نيمم وجهنا تجاه المفعول به لفعل

الأمر (وارجم) نجده جمعا منكرًا مضافًا وهو (أبالسة البشر)، وكأن يريد أن ينص على تلك الضدية الخفية غير الظاهرة بين الصغير والأبالسة؛ فالأبالسة يقابلهم الملائكة لا صغار الأطفال، ولكن لما كان الأطفال الصغار غير مكلفين بأمر ونهي لزم أن لا تصدر منهم معصية، ومن ثم فهم كالملائكة في زي أطفالٍ صغار وصلوا إلي درجة الطهارة والنقاء والصفاء القلبي، إنه صراع بين ضدين لا يجتمعان أبدًا، وكنى الشاعر عن الاحتلال الإسرائيلي لأرض فلسطين بأبالسة البشر، وهي صورة بيانية كنائية تؤكد خبث ما انطوت عليه نفوس المحتلين.

والذي أصبوا إلي تأكيده ــ هنا ــ هو أن اجتماع أسلوبين من نبعٍ بلاغي واحد، وهما: الأمر والنداء يؤكد انفعال خطاب القصيدة، وأنها سمتْ إلي الصرخة القوية التي تقتلع القلوب من الصدور، ولكن من المستجيب غير الطفل الصغير؟.

ويتوالى الانفعال الخطابي بتكرار الأمر بصيغة (افعل) في الفكرتين: الأولى والأخيرة، وقد أنبأت عنهما في التمهيد، فيقول الشاعر في مطلع البيت الثاني: واقذف حجارتك الضعاف، قاصدًا الصمود الدائم، مبينًا في عقبه عنصرًا من عناصر تحديد هذه الدلالة وهو عنصر المصلحة، وذلك في البيتين الأخيرين من النص؛ لأن المصلحة العائدة على المأمور وهو الطفل الصغير هي: قدوم النصر لا محالة، وعودة القدس من الأيادي المحتالة، ومن ثم قال: اقذف فنصرك قادم، وقال: اقذف فقدسك عائد، وإذا حاولنا وجود مبرر لتكرار فعل الأمر اقذف في الفكرة الأول للنص والأخيرة منه ألفيناه تأكيدًا واهتمامًا على بث الأمل في النفس، وتذكيرها بأن النصر مع الصبر، ومن ثم قيل: "التكرير أسلوب تعبيريٌ يصور انفعال النفس بمثيرٍ من المثيرات، واللفظ المكرر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان، فالمتكلم إنما يكرر ما يثير اهتمامًا عنده، وهو يحب في الوقت نفسه أن ينقله إلي نفوس مخاطبيه، أو من هم في حكم

المخاطبين ممن يصل إليهم القول على بعد الزمان والديار"(١)، وهنا أود الإشارة إلي أني اكتفيت بهاتين الدلالتين الجديدتين لأسلوب الأمر دون ذكر دلالات الأوامر الأخرى؛ لأنها من نبع تلك الدلالتين، وكفى بالقلادة ما أحاط بالعنق؛ والبلاغة الإيجاز كما قال البلاغيون.

ومن باب التجاور والتعانق ــ كذلك ــ اجتماع الأمر والنهي في سياق واحدٍ، وكثيرًا ما يجتمع الأسلوبان، وذلك له أسراره ودلالاته، ومن ذلك قول شاعرنا النبيل:

اقْذِفْ وَلَا تَخَفِ اللَّهِيبَ وَلَا الدُّخَانَ وَلَا الشَّرَرْ
اقْذِفْ وَلَا تَخْشَ المَنُونَ وَلَا تَفِرَّ مِنَ الخَطَرْ
فَالمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ شَهْدُهَا فِي الحَلْقِ مُرْ

وفي تلك الأبيات نرى أسبقية الأمر على النهي وكثرته، ولعل ذلك راجع إلي شيوعه، ودورانه على الألسن بسبب خفته النابعة من قلة حروفه، وقد تكرر النهي ــ هنا ــ خمس مرات والغرض البلاغي من نهيه لطفل الانتفاضة بألا يخاف اللهيب، وألا يخاف الدخان، وألا يخاف الشرر، وألا يخشى المنون، وألا يفر من القدر هو النصح والإرشاد، وهي دلالة توليدية وتحويلية من الوجوب الصرف الحقيقي لتلك الصيغة الطلبية، وفي ختام الأبيات الثلاثة يظهر عنصر المصلحة العائدة على الطفل إذا امتثل المنهيَّ عنه، ألا وهي: أن عز الموت خير من حياة مرة المذاق.

ومن الإحسان إلي المعنى الإبانة عن دلالة حذف الفعل المضارع في البيت الأول بعد لا الناهية، وسر الحذف هو الدلالة عليه، فلم يقل الشاعر: ولا تخف الدخان ولا تخف الشرر، وإنما اكتفي بذكر الفعل مرة واحدة؛ لأنه لا يتناسب مع

(١) التكرير بين المثير والتأثير ــ د/ عز الدين على السيد ــ صـ: ١٣٧ــ الناشر/ دار الطباعة المحمدية بالأزهر ــ ط/ الأولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

موقف الحث على الصمود واستنهاض العزائم الذي دل عليه فعل الأمر اقذف، وتوالي النهي وتكراره أذكى الخطاب الانفعالي الذي اتسمت به القصيدة؛ وزاد من تأثيره في نفس المتلقي، ومن ثم رأينا في كل حركة من حركات الاحتلال الإسرائيلي ألوفًا من الحركات المضادة المتمثلة في حجارة طفل الانتفاضة، وعليه أرى أن الشاعر أبدع حين نظم الأمر والنهي في سلك واحدٍ، وسر تكريره لهما هو أن "اللفظ المكرر ــ بوجه عام ــ مصدره الثورة، وهدفه الإثارة حبًا أو بغضًا في أي غرض من أغراض الكلام"(١).

وفي الفكرة الأخيرة ــ كذلك ــ اجتمع الأسلوبان الطلبيان: الأمر والنهي، وأعقبهما الشاعر ببيان عنصر المصلحة حيث قال:

اقْذِفْ وَلَا تِهِ لحْظَةً فَغَدَا يَلِينُ لَكَ العَسِرْ

وغير خفي على المتلقي بيان المعنى؛ لأن القصيدة كما هو ظاهر تتسم بوضوح المعنى، وبعد ألفاظها عن التعقيد والغرابة والحوشية والتنافر، ولله در قائلها.

(١) التكرير بين المثير والتأثير: ١٣٧

المطلب الثاني: الاستفهام

عرفه السعد التفتازاني بقوله: "هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع النسبة بين الشيئين أو لا وقوعها فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور"(١)، والاستفهام أكثر أنواع الإنشاء الطلبي تحويلاً عن معنى الوجوب وتوليدًا لمعانٍ جديدة تنبع من سياقه؛ وذلك لكثرة أدواته، وتنوع سياقاته، وأكثر أدوات الاستفهام دورانًا واستعمالاً هي الهمزة، وبالنظر في الفكرة الثالثة في القصيدة وجدناها اشتملت على استفهامين من نمط واحد.

يقول الشاعر:

أَوَلَمْ تَرَ الطَّيْرَ الوَدِيعِ جَحَافِلاً تُزْجِي الْقَدَرْ
فِي جَوْفِهَا الَموْتُ الزُؤَامُ غَدَاةَ أَبْرَهَةٌ فَجَرْ
أَوَلَمْ تَرَ الَماءَ الرَّقِيقَ هُوَ الَهَلاكُ لِمَنْ غَدَرْ
لمَّا أَصَرَّ المُجْرِمُونَ عَلَى مُعَادَاةِ النُّذُرْ

هذه الأبيات هي الفكرة الثالثة في القصيدة وهي كما ترى ــ قارئي الكريم ــ تبين عاقبة الظالمين، وذكر الشاعر منهم: أبرهة الأشرم، وقوم عاد الذين أرسل إليهم سيدنا هود ــ عليه السلام ــ، ولا يخفى على المتلقي الأحداث التي تعلقت بهما، وأنبأنا القرآن عنها؛ لذا أكتفي بما حوته الأبيات من بلاغة تاركًا سرد أحداث القصتين إيثارًا للإيجاز، وأسير على نهج الشاعر في الإشارة المغنية عن العبارة، فأقول:

إن الاستفهامين اللذين نسجا على نمط واحد هما: **أو لم تر الطير الوديع**، وقوله: **أولم تر الماء الرقيق**، والرؤية علميةٌ لا بصرية في كلا البيتين، وتركب أسلوب الاستفهام من الهمزة الداخلة على حرف العطف (الواو) و(لم) النافية، وهذا الاستفهام يفيد الإنكار، ومعناه: أغفلت ولم تر ما حدث لكل معتدٍ على حرم الله ــ

(١) المطول: ٢٢٦

تعالى ــ في مكة المكرمة، وبالحضارة التي لم يخلق مثلها في البلاد، وهي حضارة قوم عاد، وكأن الشاعر يقول لهم: إن مصيركم، ومصير كل معتد ظالمٍ في عالمنا المعاصر كمصير المعتدين في سالف الزمان القديم، وهو يدل على أنه واقع بهم لا محالة.

وفي ختام هذا المبحث ينبغي تبيان أن الشاعر لم يلجأ إلي أسلوب التمني؛ لأن الشيء المتمني لا يكون إلا بعيدًا، أو مستحيلاً، وقد بين العلامة السعد ــ رحمه الله ــ حقيقته فقال:" هو طلب حصول شيءٍ على سبيل المحبة"(١)، ثم بين أن هذا الطلب المحبوب إنما أن يكون ممكنًا، لكنه يشترط فيه شرطًا يجب توفره، وهو نفي الطماعية تمامًا في حصوله كقولك: ليت زيدًا يجئ، تقول هذا في حالٍ لا طمع لك في مجيئه، وإما أن يكون محالاً، ومثل له بنفس مثال الخطيب القزويني ــ رحمه الله ــ وهو: ليت الشباب يعود يومًا(٢)، ولهذا أراد الشاعر ــ كما أرى ولعلي أكون على صواب ــ أن يضع أمام ناظري الطفل الفلسطيني الأمر المحقق الثابت فقط الذي ليس محالاً، ولا ممكنًا غير أنه بعيد المنال، ألا وهو: عودة القدس الشريف مهما طال الاحتلال؛ ليظل قوي العزيمة والإرادة في الدفاع، فالشاعر لم يلجأ إلي التمني بـ(ليت)؛ لأنه أراد أن يوحي لنا أنه لا مستحيل أمام أطفال فلسطين أطفال الحجارة، فالأشياء ممكنة بالنسبة لهم، فلله درهم.

ومن ثم هيمنت على القصيدة أساليب الثورة العربية والانفعال العاطفي وهي: الأمر والنهي، والاستفهام والنداء، أما التمني فهو معنى محبوس في النفس ــ غالبًا ــ يكون محالاً، ويستعمل فيه (ليت)، وإذا أراد المتكلم أن يثور على هذا المحال ويقلبه إلي حقيقة واقعة فإنه لا يعبر عنه بـ(ليت) ــ؛ "لأنها لا تعرض لها معانٍ غير معناها الحقيقي كالأنواع الأخرى من أساليب الطلب، فضلاً عما في

(١) المطول: ٢٢٥

(٢) ينظر المصدر السابق : ٢٢٥، وشروح التلخيص ــ (٢/٢٣٨، ٢٣٩) ط/ عيسى البابي الحلبي.

دخوله ــ يعني التمني ــ في أساليب الطلب من مناقشة، إذ أخرجه بعض أهل اللغة من أساليب الطلب([1])، بناءً على أن العاقل لا يطلب المستحيل"([2]) ــ، بل بـــ(هل)، وهذا ملمحٌ طيب ذكره السعد التفتازاني ــ رحمه الله تعالى ــ فقال: "والنكتة فـــي التمني بـــ(هل) والعدول عن (ليت) هو إبراز المتمني لكمال العناية به في صـــورة الممكن الذي لا جزم بانتفائه"([3])، ولعلك ــ أيها القارئ الكريم ــ لاحظـــت معـــي جملة (إبراز المتمني) وهي تعني أنه محبوس في النفس، وإظهاره لا تفي به ليت، بل تفي به (هل)، وهذا سر من أسرار العدول عن النمطية في التعبير الأدبي، وفي النهاية أسأل الله ــ تعالى ــ ألا أكون ظلمت نفسي بظلمي لهـــذه الكلمـــة العربيـــة الفاقهة (ليت)، وأسأله غفران الذلل والتقصير، والآن أنتقل إلي المطلب الثالث، وها هو ذا:

(١) يقول العلامة محمد بن عرفة الدسوقي في حاشيته البلاغية الفريدة في بابها: " ومـــنهم مـــن أخرج التمني والنداء من أقسام الطلب بناءً على أن العاقل لا يطلب ما يعلم استحالته، فالتمني ليس طلبًا ولا يستلزمه، وأن طلب الإقبال خارج عن مفهوم النداء الذي هو صوت يهتف بـــه الرجل وإن كان يلزمه" ينظر: حاشية الدسوقي على مختصـــر الســـعد ــ ضـــمن شـــروح التلخيص: ٢٣٨/٢

(٢) أساليب الإنشاء الطلبي، وطرق إفادتها غير معانيها الحقيقية دراسة ونقـــد ــ أد/ محمـــود موسى حمدان ــ بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية ــ العدد الثاني عشر ــ ومنشور ــ كذلك ــ في كتاب علم المعاني الذي أعده قسم البلاغة والنقد في ذات الكلية عـــام ١٤٢٣هـــ ــ صـــ: ١٣٣.

(٣) المطول : ٢٢٥

المطلب الثالث: القسم

ذكر البلاغيون أن الأساليب الإنشائية غير الطلبية "لا يبحث عنها لقلة المباحث البيانية المتعلقة بها، ولأن أكثرها في الغالب أخبار نقلت إلي معنى الإنشاء"(١)، وقد أتي في القصيدة قَسَمٌ له دلالة بلاغية، وهي إفادة التوعد والتهديد، وهما قوله:

وَلَقَدْ تَأَذَّنَ رَبُّنَا واللهُ حَقٌّ مَا قَدَرْ
لَيُذِيقَنِ القَوْمَ الطُّغَاةَ مِنَ العَذَابِ المُسْتَمِرْ

هذان البيتان من الإنشاء غير الطلبي، وقوله: ولقد تأذن ربنا جواب قسم محذوف، والجملة بهذا الجواب المؤكد بقد الداخلة على فعلٍ ماض لإفادة التحقيق تفيد : أن ربنا ــ جلت قدرته ــ سيذيق المعتدين من العذاب المستمر الدائم؛ لأن وعيده لا يرد، ولا يقدر على منعه أحد، ومن خلال ذلك ندرك أن الإنشاء غير الطلبي له أسراره البلاغية التي تستفاد من السياق، وليس كما ذكر عنه أنه قليل الفائدة، ونلحظ ــ هنا ــ أن الشاعر كنى عن الإسرائيليين المحتلين بالطغاة وهي كناية عن موصوف، وتشير إلي عظم جرمهم الكبير، وثقله وفداحة أمره، كما نلاحظ أن الشاعر وضع المظهر في موضع المضمر في البيت الأول، فكان يمكن أن يقول: ولقد تأذن ربنا *** وهو حق ما قدر، ولكنه آثر ذكر اسم الجلالة (الله) المشعر بالقهر والقوة والعظمة؛ وذلك لتأكيد هذا التوعد، ثم إنه وصف العذاب بالاستمرار للدلالة على كونه غير مؤقت ومحدد، بل مستمر دائم، وليس كما قال اليهود ــ لعنهم الله ــ أيامًا معدودة . نجانا الله ــ تعالى ــ بمنه ولطفه من العذاب المستمر.

(١) المطول:٢٣٦

المبحث الثالث: الجملة الانفعالية الخبرية، وخصائصها البلاغية في القصيدة

وضع الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ــ رحمه الله ــ حدًا للخبر فقال: "ما احتمل الصدق والكذب مما لا يخُصُّ لساناً دون لسان"(١)، وبين أنه مقدم على الإنشاء فقال: "الخبر أوّل معاني الكلام وأقدمُها، والذي تستند سائر المعاني إليه وتترتّب عليه"(٢)، وعليه فباب الخبر واسع جدًا، وأساليبه لا تكاد تحصى، ولهذه الأساليب مزايا وفوائد تنبع من السياق، ومن ثم رأينا الشيخ عبدالقاهر يوضح ذلك بقوله: "وجملةُ الأمرِ، أنَّ "الخبرَ" وجميعَ الكلامِ، معانٍ ينشِئُها الإنسانُ في نفسهِ، ويُصرِّفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقلَه، وتوصَفُ بأنَّها مقاصدُ وأغراضٌ، وأعظمُها شأناً "الخَبرُ"، فهو الذي يُتصوَّر بالصُوَرِ الكثيرة، وتقعُ فيه الصناعاتُ العجيبةُ، وفيه يكونُ، في الأمرِ الأعمِّ، المزايا التي بها يقعُ التفاضلُ في الفصاحَةِ"(٣).

والجملة الخبرية اسمية كانت أو فعلية، مثبتة أو منفية تتميز بأن لها غرضين: الأول فائدة الخبر، والثاني: لازم الفائدة، وتخرج الجملة الخبرية كثيرًا عن هذين الغرضين إلي معانٍ جديدة أخرى تنبع من السياق وتستفاد من قرائن الأحوال، والجملة الخبرية ــ كذلك ــ تتعلق أحوالها بالمسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل إثباتًا ونفيًا، وذكرًا وحذفًا، وتقديمًا وتأخيرًا، وتأكيدًا وعدم تأكيد، وغير ذلك من الأحوال العارضة للإسناد الخبري.

وأستدل على هذا التحول والتغيير الدلالي بمثال ذكره الشيخ عبدالقاهر ــ رحمه الله ــ في باب التقديم والتأخير حيث قال: " قولُك: "هو يعطي الجزيل"، و"هو

---

(١) أسرار البلاغة للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ــ تح/ الشيخ محمود محمد شاكر : ٣٥٠ــ الناشر/ مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ــ ط/ الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(٢) المصدر السابق: ٣٦٦

(٣) دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ــ تح/ الشيخ محمود محمد شاكر : ٥٢٨ ــ الناشر/ مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ــ ط/الثالثة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

يُحبُّ الثناءَ"، لا تُريد أن تَزعم أنه ليس هنا مَنْ يُعطي الجزيلَ ويُحِبُّ الثناءَ غيرَهُ، ولا أن تُعرِّض بإنسانٍ وتحطَّه عنه، وتجعلَه لا يُعطي كما يُعْطي، ولا يَرْغَبُ كما يَرغب، ولكنكَ تريدُ أن تُحقِّق على السامعِ أنَّ إعطاءَ الجزيل وحُبَّ الثناءِ دأْبُهُ، وأن تُمكِّن ذلك في نفسه"(١).

تبين من النص السابق أن الجملة الخبرية التي تقدم فيها المسند إليه على الخبر الفعلي (يعطي، يحب) ليس غرضها حقيقة الإخبار بالإعطاء فقط، ولكن غرضها إفادة القصر ، أي قصره على إعطاء الجزيل، وحب الثناء، وهكذا شأن الجمل الخبرية يحولها السياق إلي دلالات جديدة، مثل: التحسر والتحزن، والخضوع والتخشع، وتفاوت المنازل والمراتب، وتحريك حمية الجاهل، وغير ذلك مما ذكره العلامة السعد ــ رحمه الله ــ(٢)، وإليك قارئي الكريم بعض هذه الدلالات في قصيدة أنشودة الحجر، وذلك في المطالب الآتية:

(١) دلائل الإعجاز: ١٢٩

(٢) ينظر المطول: ٤٣

المطلب الأول: الخبر الإنكاري

ورد الخبر المفيد للإنكار في القصيدة في قول الشاعر مخاطبًا طفل الانتفاضة:

اقْذِفْ قَدِ اقْتَرَفَ الطُغَـــ اةُ جَرَائِمَا لَا تُغْتَفَرْ
هُمْ عَلَّمُوكَ الْقَتْلَ وَالتَّـــ رْوِيعَ فِي رَيْعِ العُمُرْ
هُمْ قَتَّلُوا فِيكَ الطُّفُو لَةَ وَالبَرَاءَةَ فِي الصِّغَرْ
هُمْ صَيَّرُوا الأَشْوَاكَ تَنْبُتُ فَوْقَ أَوْرَاقِ الزَّهَرْ

يوضح السيد الشريف الجرجاني ــ رحمه الله ــ معنى الإنكار بقوله: "إنكار الشيء بمعنى كراهته، والنفرة عن وقوعه في أحد الأزمنة، وادعاء أنه مما لا ينبغي أن يقع"(١)، والجمل الخبرية في الأبيات هي: **(هم علموك القتل)** و **(هم قتلوا فيك الطفولة)** و**(هم صيروا الأشواك...)** وقد تقدم فيها المسند إليه على الخبر الفعلي في حال الإثبات، وليس الغاية من هذا التقديم إفادة هذا الطفل أن الطغاة المحتلين هم الذين فعلوا ذلك، ولكن الغرض من التقديم إنكار فعلهم، والطعن فيه، وأنه لا ينبغي أن يكون من بادئ الأمر؛ لأن الأرض ليست لهم بأرض، والمساكن ليست لهم بمسكن، والمسند إليه ــ هنا ــ ضمير منفصل (هم) وهذا الضمير للغائب؛ لأن المقام مقام غيبة، أو تغييب لهم من الوهلة الأولى؛ لانتفاء أحقيتهم بتعريفهم بالعلمية التي فيها شرف المسمى، والملاحظ أن هذه الجمل الخبرية تدل على القصر؛ لأن الضمير المنفصل (هم) ينص على أنهم هم لا غيرهم من علَّموا هذا الطفل الصغير القتل، وغيره، وما كان ينبغي أن يكون، وهذا القصر أفاد أن ما فعله اليهود في أرض فلسطين مسلمًا به حقًا، وهم في هذا مذمومون، ولا يشك في هذا شاك، ولا ينكره عاقلٌ.

(١) حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول : ٢٣٨ ــ مطبعة أحمد كامل ط/١٣٣٠هـ.

والذي يصور معنى الانفعال الخطابي في هذه الأبيات إضافة إلي معنى الإنكار الذي دلت عليه الجمل الخبرية الثلاثة سبقها بجملة خبرية تصرف الشاعر في صورتها التركيبية، فالصورة الأدبية لا تلتزم نمطًا واحدًا في ثوبها الخبري، بل لها في كل موقف نمط تركيبي خاص، فأحيانًا تصحب الجملة الخبرية شيئًا من التوكيد المكثف، وأحيانا تأتي بلا مؤكدات، والشاعر ــ هنا ــ قال في مستهل الأبيات:

قد اقترف الطغاة جرائما لا تغتفر

وهي جملة تثير في كل من كان بداخله بقية من شعور وإحساس بالألم على فلسطين، وقد عبث على أرضها الطغاة الصهاينة، وعاثوا فيها فسادًا وقتلاً، فهذه الجملة الخبرية المؤكدة توحي باستثارة وجدان الأطفال المسلمين لأن يقذفوا كل طاغية بأحجارهم التي من شأنها بث الرعب والفزع في قلوب الطغاة، وهي كذلك بمثابة التمهيد لمعنى القصر المستفاد من تقديم الضمير المنفصل فيما بعد على الخبر الفعلي

ومن ثم أرى أن الشاعر أجاد أيما إجادة في هذه التهيئة للمعنى المراد، ويضاف إلي تأكيد معنى الانفعال الخطابي أن الشاعر عمد إلي قوالب لفظية تحمل معاني الألم النفسي التي أصبحت ترتع في الرياض النضرة التي في صدور الأطفال الفلسطينيين مثل: القتل والتقتيل والترويع والأشواك، وكل هذه المعاني تؤكد فيما أعتقد معنى الإنكار والرفض والتمرد على الواقع الأليم، والله أسأل أن يسلمنا جميعًا وبلادنا منه.

المطلب الثاني: الخبر لتعدد مظاهر القوة

أتي الخبر في القصيدة لإظهار قوة الصخر المتعددة، وذلك في الجملة الخبرية المنسوجة على الصورة التشبيهية في قول الشاعر:

اقْذِفْ فَصَخْرُكَ مَعْبَرٌ ... يُدْنِي الجَبَابِرَ مِنْ سَقَرْ
اقْذِفْ فَصَخْرُكَ مِشْعَلٌ ... يَهَبُ الهِدَايَةَ مِنْ عَبَرْ
اقْذِفْ فَصَخْرُكَ آيَةٌ ... فِيهَا المَوَاعِظُ وَالعِبَرْ
اقْذِفْ فَصَخْرُكَ قِصَّةٌ ... مِنْ خَيْرِ مَا تَحْكِي السِّيَرْ

الأوامر التي استهل بها الشاعر الأبيات تنبعث بالانفعال، وتنبض بالصمود والثبات، وتحث على رفض الواقع المر الذي سيطر على مهد الرسالات فلسطين صاحبة العزة والكرامة، وعقب كل أمر من تلك الأوامر صورة تشبيهية خبرية تكشف عن قوة الصخر والحجر، وأن أثره في الأعداء لا يقل عن أثر الآلات الحربية الحديثة، فكما أن فيها الهلاك فكذلك هذا الصخر، إلا أنه فاق آلات الحرب الحديثة وتعددت آثاره وتأثيراته في المجتمع، فمرة يكون كالمعبر، ومرة كالمشعل، ومرة كالآية، ومرة كالقصة ــ وتلك مظاهر القوة

والملاحظ في هذه الصور التشبيهية أنها من قبيل التشبيه الذي جمع بين الحسية العقلية، ذلك الذي يؤكد الحقائق ويقويها، وهي تشبيهات مفردة من قبيل الجمع، وهو الذي "تعدد طرفه الثاني يعني المشبه به دون الأول"(١)، فأنت ــ قارئي الكريم ــ تلاحظ أن المشبه في الأبيات واحد وهو الصخر، والمشبه به متعدد، وقد تكرر لفظ المشبه في كل بيت لتأكيد تعدد قوته، وأنها لا تقف عند حد معينٍ، والتشبيهات ــ كذلك ــ محذوفة الأداة فهي تشبيهات مؤكدة، ولكن لماذا آثر الشاعر هذا النمط التعبيري؟ والجواب أنه إنما آثر جعل المشبه والمشبه به شيئًا

(١) المطول:٣٣٨

واحدًا، وذلك على عادة العرب في التعبير؛ لأن "العرب إذا أرادت التوحيد بين المشبه والمشبه به جعلتهما في إطار المبتدأ والخبر، كما قال الشاعر:

عَزَمَاتُهُمْ قُضبٌ، وَفَيْضُ أَكُفِّهِمْ *** سُحُبٌ، وَفَيْضُ وُجُوهِهِمْ أَقْمَارُ"(١).

ووجه الشبه في الأبيات مذكور، ومعناه في البيت الأول الذي شبه فيه الصخر بالمعبر الإيصال إلي الغاية، وغاية الطفل الفلسطيني من صخره إهلاك الجبابرة، وإدناؤهم من سقر، ووجه الشبه في البيت الثاني الذي شبه فيه الصخر بالمشعل هو الهداية؛ ليعتبر من في قلبه ذرة اعتبار، ووجه الشبه في البيت الثالث الذي شبه فيه الصخر بالآية هو العظة لمن في قلبه ذرة اتعاظ، ووجه الشبه في البيت الرابع الذي شبه فيه الصخر بالقصة إرادة انتشار السِّيرْ والأخبار، وهذه الأوجه أراد الشاعر ــ فيما أعتقد ــ بذكرها التنصيص عليها، وعدم إرادة غيرها، وهذا سبب ذكره؛ وذلك "لأن التصريح بوجه الشبه قليل في اللسان العربي؛ وذلك لأن الذهن يستحضر عند الجمع بين المشبه والمشبه به وجه الشبه غالبًا، لكن المتكلم قد يعمد إلي التصريح به ليحدده دون غيره مما يشابهه، وليمنع المتلقي من استحضار غيره، مما قد يؤثر على مراده من التشبيه"(٢)

ولعلي ــ هنا ــ أكون مصيبًا حين أقول: إن الشاعر أراد بهذه الصورة البيانية بيان مقدار قوة الصخر الذي في يد هذا الطفل الصغير، وكأنه حجر جهنم الذي أهلك الله به أبرهة الأشرم ومن معه من جنوده، وكأن حجارة فلسطين من نوع خاص أعد إعدادًا كطلقات الرصاص التي تدمر الآلات.

(١) الوجوه الحسان في علم البيان ــ أد/ سعيد جمعة ــ صـ:٧١ ــ الناشر/ مكتبة وهبة ــ ط/ الأولى ٢٠١٥م.

(٢) المصدر السابق: ٨١

المطلب الثالث: الخبر لتحريك الهمة، وقوة العزيمة

أتى الخبر حاملاً تحريك الهمة، وقوة العزيمة في قول الشاعر:

اقْـــذِفْ ولَـــا تَخْـــشَ المَنُـــونَ ولَـــا تَفِـــرَّ مِـــنَ الخَطَـــرْ

فَـــالمَوْتُ خَيْـــرٌ مِـــنْ حَيَـــاةٍ شَـــهْدُهَا فِـــي الحَلْـــقِ مُـــرْ

البيت الثاني كما ترى ــ أيها القارئ الكريم ــ تعليل لـــلأول، وهـــو جملـــة خبرية وليس الهدف منها إفادة المخاطب أن الموت خير من الحياة المليئة بالمذلـــة، بل المراد تحريك همته، وتقوية عزيمته ليظل صامدًا متأهبًا لـــرد العـــدوان الـــذي يحول الحياة من حلاوة إلي مرارة، ونلاحظ أن الطباق بين الشهد والمرارة خفـــي؛ لأن الذي يضاد المرارة الحلاوة لا الشهد، ولكن لما كان الشهد حلو المذاق صحت الضدية هنا، وهذا الخبر ابتدائي؛ لأنه خلا من المؤكدات.

المبحث الرابع: التماسك النصي، والخطاب الانفعالي في القصيدة

الناظر في الشعر الوطني خاصة في عصرنا المعاصر يجده يتميز بميزة فنية نقدية ألا وهي: الوحدة العضوية، بمعنى أن يكون النص جسدًا واحدًا لا انفكاك بين أجزائه، ولا خلط بينها، وإحلال عضو محل عضوٍ آخر، والقصيدة التي معنا من هذا النوع، فهي كما قلت سابقًا: قطعة واحدةٌ متماسكة، وعلى الرغم من اشتمالها على أربعة أفكار رئيسة إلا أنها تمتاز باتحاد الموضوع المتلائم الأجزاء، وهذا من صفات النص الجيد الذي لا يخفى على عاقل، بل على الناس جميعًا، وهذا أكده الشيخ عبدالقاهر ــ رحمه الله ــ بقوله: "لا نظم في الكلم، ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، وهذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحدٍ من الناس"(١).

والربط بين أجزاء النص، ومراعاة الترتيب والتقديم والتأخير، وجميع الأحوال البلاغية الأخرى التي تعرض للنص كالذكر والحذف وغيرهما ينتج عنها لطائف وأسرار تضئ الطريق أمام القارئ للوصول إلي المعاني الخفية المستورة وراء الألفاظ، ومن ثم كان فخر الدين الرازي موفقًا أتم التوفيق حين سبق الحداثيين المعاصرين بقوله: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"(٢)، وأطلق الحداثيون على مراعاة الترتيب، وأثر الروابط في الالتحام مصطلح التماسك النصي، "والتماسك النصي هو العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة المحيطة"(٣).

---

(١) دلائل الإعجاز: ٣٧

(٢) مفاتيح الغيب ــ لفخر الدين الرازي ت٦٠٦هـ ــ (١١٠/١٠) الناشر/ دار إحياء التراث العربي ــ ط/ الثالثة ١٤٢٠هـ.

(٣) أسلوبية ونظرية النظم ــ د/ إبراهيم خليل ــ ١٣٥ــ الناشر/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ــ ط/ الأولى ١٩٩٧م.

ومن خلال التأمل في قصيدة أنشودة الحجر نجد أن شاعرنا ــ أعــزه الله ــ ربط بين الأفكار الأربعة بروابط لفظية ومعنوية، وصار النص بهذه الروابط أشــد تماسكًا، وأكثر التحامًا، وهذا له دلالته الفنية، وهي: الإبقاء على سمت خطاب النص وهو الانفعال، فلم أشعر في فكرة من الأفكار بهدوء، أو رخاوة، أو همــس، بــل ثورة، وقوة، وشدة، وذلك باستخدام ألفاظ معبرة نابضة بالصرخات العالية، ولكي لا يكون الكلام مرسلاً غفلاً من الدليل أعرض أولاً لبعض الروابط اللفظيــة لأفكــار القصيدة، ثم تليها بعض الروابط المعنوية.

المطلب الأول: من الروابط اللفظية في القصيدة:

من الروابط اللفظية **وضع المضمر موضع المظهر**، وهذا من مجيئ الكــلام على خلاف مقتضى الظاهر، ويتضح في قول الشاعر:

اقْذِفْ قَــدِ اقْتَــرَفَ الطُغَــــ اةُ جَرَائِمَــا لَــا تُغْتَفَــرْ

هُمْ عَلَّمُــوكَ الْقَتْــلَ وَالتَّــــ رْوِيــعَ فِــي رَيْــعِ العُمُــرْ

فالبيت الأول آخر بيت في الفكرة الأولى للنص التي خصت بخطاب الطفــل الفلسطيني المنادي عليه بالقيام لرجم أبالسة البشر، وفيه كنى عن إسرائيل الغاصبة بالطغاة، فهي كناية عن موصوف، وهذه الصورة الكنائية توضح بشاعة ما اقترفوه من جرائم ضد الآمنين أصحاب الأرض، هؤلاء الذين شاب طفلهم رغــم نعومــة أظفاره، والبيت الثاني أول الفكرة الثانية التي خصت بالحديث عن إسرائيل، وعبر الشاعر عنهم بالضمير المنفصل (هم) فلم يقل الطغاة، وإنما قــال: هــم علمــوك القتل... فوضع المضمر موضع المظهر، والسر البلاغي في ذلك هو إرادة الــذم، وأنهم لا يستحقون الانتساب إلي سيدنا يعقــوب ــ عليــه الســلام ــ المعــروف بإسرائيل، فأنت ترى أن هناك اتصال بين الفكرتين من خلال ذكر المحدث عــنهم مرة بالاسم الظاهر، ومرة بالضمير.

من الروابط اللفظية التكرار

التكرار في القصيدة نقطة ارتكاز توكأ عليها الشاعر ــ لا فض الله قلمه، ولا فض فاه ــ في بث شكواه، وإظهار ألمه، حيث إنه لما لم ير انتفاضة من الكبار عمد إلي الصغار فحثهم على النضال، والصمود في وجه الاحتلال، فكرر المسند المتمثل في فعل الأمر (اقذف) مرات عديدة، وكرر النهي ــ كذلك ــ، وكرر المسند إليه المعرف بالضمير (هم) ثلاث مرات، كما كرر الاستفهام المنفي مرتين، هذا بالإضافة إلي تكرار المشبه (صخرك) أربع مرات، ويضاف إلي ذلك أن الشاعر كرر معانٍ نفسية مؤلمة في كل فكرة وألبسها ألفاظًا صارخة تنفعل معها النفوس اليقظة مثل: القتل، والهلاك، والأشواك، والمعاداة، العسر، والطغاة، والأبالسة، ويلاحظ أنه عبر عن المعتدين ــ دائمًا ــ بالجمع فقال عنهم : (أبالسة، الجبابر، الطغاة، الجرائم، هم) مما يدل على أنهم يدٌ واحدة في الشر، ولكن مهما كان الشر يدًا واحدة لا يقوى على الخير أبدًا؛ لأن ذلك من سنن الله في كونه وخلقه.

من الروابط اللفظية أدوات العطف:

لأدوات العطف دورها البارز في الربط بين المفردات والجمل في القصيدة، وبتأمل النص نرى أن الشاعر أكثر من العطف بـ(الواو) و(الفاء)، وهما من أكثر أدوات عطف النسق استعمالاً، ودورانًا على الألسنة، بالإضافة إلي (ثم) أيضًا، ومن أجل ذلك أكد العلامة سعد الدين التفتازاني أن الأدوات الثلاث تشترك في إفادة الجمع والربط، وذلك من خلال طريقته العلمية التعلمية افتراض السؤال والجواب فقال: " فإن قلت: الواو أيضًا يفيد الجمع بين مضموني الجملتين في الحصول نصًا؛ لأنك إذا قلت: (يضر زيد ينفع) من غير واوٍ احتمل أن يكون قولك: ينفع رجوعًا عن قولك: يضر وإبطالاً له. كذا في دلائل الإعجاز؟ قلتُ: هذا القدر مشتركٌ بين الواو والفاء وثم، والجمل المشتركة في مجرد الحصول غير متناهية فتمييز ما يحسن فيه العطف عما لا يحسن هو الذي تسكب فيه العبرات"(١).

(١) المطول: ٢٥٠

ذكرت هذا؛ لأن أستاذنا الدكتور الشاعر ربط بين كلماته وجمله في القصيدة بالواو والفاء؛ ليجمع بين تماسك إبداعه النصي، وتماسك انفعاله الخطابي في كل الأفكار التي عبر عنها في قصيدته، ومن ثم رأينا كثرة الجمل الموصولة بالواو، وسر وصلها هنا هو التوسط بين الكمالين: أي كمال الانقطاع، وكمال الاتصال، ومن ذلك قوله على سبيل المثال فحسب.

قُمْ يَا صَغِيرُ إِلَي الحَجَرْ وَأرْجُمْ أَبَالِسَةَ الْبَشَرْ
وَاقْذِفْ حِجَارَتَكَ الضِّعَافِ صَوَاعِقًا تُرْدِي الأَثَرْ
اقْذِفْ وَلَا تَخَفِ اللَّهِيبَ وَلَا الدُّخَانَ وَلَا الشَّرَرْ
اقْذِفْ وَلَا تَخْشَ المَنُونَ وَلَا تَفِرَّ مِنَ الخَطَرْ
فَالمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ شَهْدُهَا فِي الحَلْقِ مُرْ

في الأبيات ظهور لغرض من أغراض الوصل بالواو، وهو التوسط بين الكمالين، وهو يتحقق إذا كان بين الجملتين اتفاقٌ تامٌ في الخبرية أو الإنشائية، وهنا اتفقت الجمل في الإنشائية، ففي البيت الأول اتفاق في كون كل منهما جملة فعلية إنشائية نوعها الأمر (قم، وارجم)، وعطف عليهما أمرًا ثالثًا في مطلع البيت الثاني (واقذف حجارتك)، ثم جاء البيت الثالث واتفقت فيه جملتان إنشائيتان: إحداهما أمر والثانية نهي (اقذف ولا تخف اللهيب)، وهكذا يربط الشاعر بين أجزاء القصيدة ليكون صورة كلية لهذا الانفعال التعبيري من خلال هذه الجمل المترابطة.

ثم إن الشاعر ختم الأبيات السابقة برابط آخر من روابط العطف وهو (الفاء) فقال: فالموت خيرٌ...، وهو تعليلي للجمل الإنشائية السابقة التي تحث الطفل على النهوض في وجه العدو، وهذه الفاء واقعة في جواب الأمر والنهي السابقين، فهي رابطة بينهما، ومؤكدة أن ثمَّ مناسبة قوية بينهما ــ كذلك ــ ، وهكذا لو تتبعنا القصيدة حتى النهاية، ولكن كفى بالقلادة ما أحاط بالعنق كما يقول علماؤنا القدامى.

المطلب الثاني: من الروابط المعنوية في القصيدة

من الروابط المعنوية في القصيدة علاقة المطلع بالخاتمة، فيلاحظ القارئ أن خطاب الطفل الفلسطيني تكرر فيهما، وعلاقة المطالع بالمقاصد والخواتيم باب واسع جدًا تحدث عنه العلماء قديمًا وحديثًا، وما زال بكرًا؛ لأن اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة شريفة نفيسة، ومن المحال أن تقف دلالاتها عند حد معين، أو زمن معين، أو مكان معينٍ، ومن فرائد كلام العلماء عن علاقة المطلع بالخاتمة قول ابن المقفع حين سئل عن البلاغة فقال إنها: "اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة...، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته"(١) قلتُ هذا؛ لأن شاعرنا ــ بارك الله فيه ــ بني القصيدة على المقدمة والنتيجة، حيث أثبت أن استمرار الطفل الفلسطيني على ما هو عليه من مبادئ سامية نتيجته عودة القدس مرة ثانية، وقد استخدم من أجل هذه المعنى التعبير بالإنشاء في المطلع والخاتمة فقال: قم يا صغير إلي الحجر... ، وقال : اقذف فقدسك عائد *** ما دام في يدك الحجر.

وفي النهاية يمكن أن أقول: إن النص ثري جدًا بالمعاني النبيلة التي توقظ الضمائر من غفلتها، وما ذكرته منه نذر يسير لقلة بضاعتي، وقصور همتي؛ ولهذا أسأل الله ــ تعالى ــ أن يتقبل مني ما كتبته عنه، وأن يفتح باب عملٍ أنفع وأفضل لغيري من أهل العلم المخلصين، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت٢٥٥هـ ــ (٩/١)تح/ عبدالسلام هارون ــ الناشر/ مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع ــ ط/ الأولى ٢٠١٠م.

الخاتمة

الحمد لله ــ جلت قدرته ــ فقد منَّ على بالنظر في الديوان الموسوم بأنشودة الحجر للأستاذ الدكتور/ عصمت رضوان، وبتأمل قصيدته الموسومة بأنشودة الحجر ــ كذلك ــ وتبين لي ما يأتي:

أولا: شعره في ديوانه كاملاً يمتاز بالسلاسة والوضوح والبعد عن الغموض والتعقيد وهذه نقطة بلاغية هامة، كما أنه يشع منه الإخلاص؛ إذ يراه الباحث قطعة من وجدانه، ونبعًا من فيض إحساسه المرهف، ومن ثم فمن يديم النظر فيه لا يمله، بل إنه يحب العودة إليه مرة بعد مرة، وهذه سمة الإبداع الصادق.

ثانيًا: ظهر لي بعد النظر في القصيدة أنها من الشعر الوطني الخالص، أو من الشعر السياسي الذي يدعو إلي إعطاء كل ذي حق حقه، ولهذا انمازت القصيدة بغلبة الانفعال على الهدوء، وسيطرة الألفاظ الدلالية الموحية بذلك مثل: الظلم، والقهر، والعدوان، وغيرها، وظهر ــ كذلك ــ تكرار الجمل الإنشائية من أوامر ونواهٍ، فجاءت بصورة أكثر من الجمل الخبرية؛ وما ذلك إلا لما تمتاز به تلك الجمل من نبرة عالية، ودفقة شعورية ملتهبة أكثر، وفي مقدمة تلك الجمل الأمر والنهي والاستفهام.

ثالثًا: رأيت أثر الصورة التشبيهية والكنائية ظاهرًا في إبانتها عن قوة الأحجار الصغيرة التي في أيدي أطفال الانتفاضة، وأنها على الرغم من بدائيتها إلا أنها فاقت آلات الحرب الحديثة، فأرهبتهم، وزلزلت كيانهم.

رابعًا: أجاد الشاعر في ربط أجزاء القصيدة بعضها ببعض، ومن ثم تماسكت وتعاضدت، وكأنه يقول: إذا كان هذا سمت العمل القولي فلم لا يكون أثر الفعل أيضًا؟ فتعز القدس على العرب ولا تهون، وتعلو فلسطين ولا تنخفض، وتسمو أرض العرب ولا تسفل، وهكذا.

خامسًا: أظهرت الدراسة السر في عدم لجوء الشاعر إلي أسلوب التمني بـ(ليت)؛ وذلك لأنها لطلب حصول المحبوب، وهو إما أن يكون محالا، أو ممكنًا،

لكنه لا طماعية في حصوله، وأطفال فلسطين لا يعرفون المحال، ولا البعيد، فكل شيء عندهم ممكن حصوله.

سادسًا: أظهرت الدراسة ــ كذلك ــ أن أسلوب التمني دار حوله مناقشة بين أن يكون من الإنشاء الطلبي، وبين ألا يكون من الطلب أصلاً، وهذا مما يعكس للقارئ رجاحة عقل المتكلم من عدمها.

سابعًا: كان للجمل الخبرية في القصيدة أثرها في تحريك الحمية ليأنف القاعد عن الجهاد من البقاء على ما هو عليه، ويستنهض عزائم غيره للوقوف ضد الطغاة المحتلين لأرض فلسطين، وشاركتها الجمل الإنشائية في تلك الأغراض البلاغية.

وختامًا فإن ما أردت إيضاحه في هذه الوريقات هو اشتمال بلاغتنا العربية على أساليب وتراكيب انفعالية يطلبها الموقف فتستجيب، ويستدعيها السياق فتلبي، وأسأل الله ــ عز وجل ــ أن يغفر لي تقصيري وقصوري، والحمد لله رب العالمين.

فهرس مصادر الدراسة

١ــ أسرار البلاغة للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ــ تح/ الشيخ محمود محمد شاكر ــ الناشر/ مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ــ ط/ الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٢ــ أسلوبية ونظرية النظم ــ د/ إبراهيم خليل ــ الناشر/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ــ ط/ الأولى ١٩٩٧م.

٣ــ تراثنا البلاغي والمناهج الحداثية دراسة مقارنة د/ أسامة البحيري ــ الناشر/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ط/٢٠١٦م

٤ــ التكرير بين المثير والتأثير ــ د/ عز الدين على السيد ــ الناشر/ دار الطباعة المحمدية بالأزهر ــ ط/ الأولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٥ــ حاشية الدسوقي على مختضر السعد ــ ضمن شروح التلخيص ــ مطبعة الحلبي.

٦ــ حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول ــ مطبعة أحمد كامل ط/١٣٣٠هـ.

٧ــ دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ــ تح/ الشيخ محمود محمد شاكر ــ الناشر/ مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ــ ط/الثالثة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٨ــ ديوان أنشودة الحجر للشاعر أد/ عصمت رضوان ــ الناشر/ دار الجامعة ــ ط/ الأولى٢٠٠٣م

٩ــ قبل تبسم الفجر ــ ديوان شعر للدكتور/ عصمت رضوان ــ تقديم د/ ياسر البنا ــ الناشر/ مكتبة الآداب ــ ط/٢٠٠٨م.

١٠ــ المطول للسعد التفتازاني ــ مطبعة أحمد كامل ــ ط/ ١٣٣٠هـ

١١ــ معجم اللغة العربية المعاصرة ــ أد/ أحمد مختار عمر ت١٤٢٤هـ ــ الناشر/ عالم الكتب ــ ط/ الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

١٢ــ مفاتيح الغيب ــ لفخر الدين الرازي ت٦٠٦هـ ــ الناشر/ دار إحياء التراث العربي ــ ط/ الثالثة ١٤٢٠هـ.

١٣ــ الوجوه الحسان في علم البيان ــ أد/ سعيد جمعة ــ الناشر/ مكتبة وهبة ــ ط/ الأولى ٢٠١٥م.

فهرس محتويات الدراسة

م	الموضوع	الصفحة
-١	ملخص	٨٩٩
-٢	Abstract	٩٠٠
-٣	المقدمة	٩٠٣
-٤	التمهيد: الخطاب الانفعالي، وسيرة الشاعر الذاتية	٩٠٥
-٥	المحور الأول: مفهوم الخطاب الانفعالي	٩٠٥
-٦	المحور الثاني: السيرة الذاتية للشاعر	٩٠٧
-٧	المبحث الأول: ديوان أنشودة الحجر، وسمته الانفعالي	٩٠٨
-٨	المطلب الأول: دراسة وصفية موجزة للديوان	٩٠٨
-٩	المطلب الثاني: قصيدة أنشودة الحجر، ومعناها العام	٩١٢
-١٠	المبحث الثاني: الجملة الانفعالية الإنشائية، وخصائصها البلاغية في القصيدة	٩١٥
-١١	المطلب الأول: الأمر والنهي والنداء	٩١٦
-١٢	المطلب الثاني: الاستفهام	٩٢٠
-١٣	المطلب الثالث: القسم	٩٢٣
-١٤	المبحث الثالث: الجملة الانفعالية الخبرية، وخصائصها البلاغية في القصيدة	٩٢٤
-١٥	المطلب الأول: الخبر الإنكاري	٩٢٦
-١٦	المطلب الثاني: الخبر لتعدد مظاهر القوة	٩٢٨
-١٧	المطلب الثالث: الخبر لتحريك الهمة، وقوة العزيمة	٩٣٠
-١٨	المبحث الرابع: التماسك النصي، والخطاب الانفعالي في القصيدة	٩٣١
-١٩	المطلب الأول: من الروابط اللفظية في القصيدة	٩٣٢
-٢٠	المطلب الثاني: من الروابط المعنوية في القصيدة	٩٣٥
-٢١	الخاتمة	٩٣٦
-٢٢	فهرس مصادر الدراسة	٩٣٨
-٢٣	فهرس محتويات الدراسة	٩٤٠

تم بحمد الله